المدارس المتأخرة بعد أرسطو

أولا : الأبيقوريون The Epicureans

تنتسب الفلسفة الابيقورية الى مؤسسها ابيقور الذى ولد بجزيرة ساموس عام ٣٤١ ق.م وتوفى عام ٢٧٠ ق.م وقد تناول سيرته المؤرخون وانقسم قدماؤهم ومحدثوهم على السواء فى شأنه . ففريق يعظمه ويرفع من شأنه الى أعلى مكان وفريق أظهر له كراهية لامثيل لها وفى هذا يقول كارل ماركس أن ابيقور كان الوحيد من بين القدماء الذى أراد تنوير العقول . ومن أجل ذلك لقبه رجال الكنيسة منذ عصر يلوتارخ الى لرثر بلقب الفيلسوف الملحد بالمعنى الآثم . أما عن حقيقة هذا الفيلسوف المفترى عليه فيبدو أنها لم تكن بالبشاعة التى صوره عليها أعداؤه على مدى التاريخ .

فالمعروف عنه أنه تتلمذ على نويفان Nausiphanes الذى كان يعلم الفلسفة الطبيعية القديمة وخاصة فلسفة ديمقريطس المادية وعاش فترة طويلة من حياته متنقلا فى ربوع آسيا الصغرى باحثا عن الحكمة واستقر به المطاف آخر الأمر بأثينا حيث أسس مدرسته فى الحديقة فى نفس الفترة التى أسس فيها زينون مدرسة الرواق وتوفى فى سن التاسعة والستين بعد حياة عذبه المرض فيها طويلا واحتمله بصبر وشجاعة وتفاؤل كبير . وكان من أشهر تلاميذه ويذكر من بين تلاميذه وخلفائه من بعده هرمارخوس Hermerchus ومترودورس Metrodorus ويذكر من بين تلاميذه عبده موسا Muse الذى علمه الفلسفة فبرع فيها ثم اعتقه .

أما عن أعدائه القدماء ومعاصريه فقد كان على رأسهم فلاسفة الرواقية وخاصة كيزيبوس الذى كانت غيرته منه تدفعه الى أن يكتب ردا على كل مايكتبه ابيقور .

وكان تيمقراطس Timoarates من أكثر اللذين أساءوا اليه وكالوا له التهم الكاذبة فقد كان تلميذا له ثم ترك مدرسته حاقدا عليه . وبما يذكره أعداؤه عنه إنه كان يتردد مع أمه على المنازل ليقرأ التعاويذ السحرية ويعلم الأبجدية ويرافق

العاهرات ويراسلهن وأنه انتحل مؤلفات ديمقريطس فى الذرة وأرستموس فى اللـذة وكان ابيكتينوس الرواقى يصف تعاليم ابيقور بأنها لا أخلاقية .

غير أن الأرجح بحسب رواية القدماء وعلى رأسهم ديوجين لايرتس أن أكـثر التهم التى وجهت اليه كانت كاذبة فهناك أدلة كثيرة تثبت عدالته على مواذيـه وإلا لما أقامت له مدينته عشرين تمثالاً من البرنز ؟ ويروى عنه أنه دعا الـى حسـن معاملة الرقيق فأوصى بعتق جميع عبيده ووزع ثروته على تلاميذه وأخـذ نفسـه بالزهد والقناعة فى المأكل والملبس وكان يقنع بالخبز الجاف والماء وكتب مرة فى رسالة الى أحد أصدقائه يقول له ، لتشتر لى قطعة من جبـن كيتـوس Cythnos حتى أجد مأكلاً حسناً حين أتوق الى ذلك .

تلك هى حياة ذلك الفيلسوف الذى اختلف فى شأنه القدماء والمعاصرون والـذى قال أن السعادة هى الخير الأسمى وحاول تنوير أذهان معاصريه .

وكان لابيقور مؤلفات كثيرة – بلغت الثلاثمائة مؤلف – ضاع أكثرها ولم يبـق منها سوى ثلاث رسائل رسالة الى هيرودون تضمنت مختصراً فى الفلسفة ورسالة الى بيتوكليس تكلم فيها عن الظواهر السماوية ورسالة ثالثة الـى منكـايوس فـى الأخلاق وقد نشر هذه الرسائل أوستر فى ليزج عام ١٨٨٧ وترجمها الى الفرنسية صولوفين .

أما عن فلسفته. فهو يعد آخرأقطاب فلسفة الذرة فى اليونان إذ كان سليل مدرسة لوقبوس وديمقريطس وعرفت فلسفته وذاعت بعد ذلك فى العالم اليونانى الرومانى ، ولم يظهر من أتباعه المتأخرين من أيد آراءه ودافع عنه مثل ذلك الشاعر الرومانى الفيلسوف تيتوس لوكريتيوس كاروس الذى عاش حول القرن الأول الميلادى فقـد إرتضى لوكريتيوس لنفسه أبيقور هادياً ومرشداً وأخذ على عاتقه أن يصوغ هـذه الفلسفة التى وجد فيها سر طمأنينته فى شعر عذب كان يؤلفه فى فترات متقطعة من حياته التى سادتها نوبات من الجنون ، وقد أهدى القصيدة التى شرح فيـها فلسـفة

أبيقور الى مميوس Memuius راعى الفنون وأحد أعلام السياسـة فـى عصـره وأطلق لوكويتنوس على قصيدته الفلسفية اسم فى طبيعـة الأشـياء De rerum Netura وعرض فيها نظريات أستاذه أبيقور فى الطبيعة والحياة الإنسانية غير أنها لم تظفر فى العالم القديم بما كان يليق بها من تقدير لما إنطوت عليه مـن نزعـة عقلية وتفسيرات مادية لم ترضى الروح الدينية السائدة فى هذه العصور .

ولقد قسم أبيقور الفلسفة إلى ثلاثة أجزاء رئيسية هى قواعد المعرفة وتفسـيره للطبيعة وبحثه فى الأخلاق ويمكن أن نستمد آراءه عن هذه الموضوعات الثلاثة من رسائله الثلاثة الباقية وقصيدة شارحة لوكرتيوس .

قواعد المعرفـة Canonic la Canoncue :

وقد جعل أبيقور بحثه فى المعرفة وقواعدها مقدمة ومنهجا يسير عليـه سـائر الأجزاء الأخرى ليضمن الوصول الى الحقيقة ، ويأخذ أبيقور فى تفسيره للمعرفـة بنظرية حسية مطلقة فيذهب فى تفسير الأحساس البصرى بأنه يتم حين يصدر من سطح المرئيات اشباحا مادية تخترق الهواء لتؤثر على بصرنـا وينفـى النظريـة المعروفة فى عصره والتى ترد الأبصار الى وجود سيال أو أشعة تصدر من العين الى البصر أما عن الأشباح التى تصدر من الأشياء والتى فسر بها الأبصـار فقـد سماها لوكريتيوس Simulacra وهى تظل حافظة لكل الأشياء وألوانها ، وبذلـك تنقل الصورة الحقيقية عن الأشياء ومن هنا فقد عارض نظرية ديقريطـس التـى تستند على القول بوجود صفات ثانوية فى الأشياء . مرجعـها تكويـن الحـواس الإنسانية . أما السمع فيفسره بأنه يحدث عندما ينبعث من المتكلم أو مـن مصـدر الصوت سيل من الجزئيات الصغيرة المتحركة فى تيار هوائى يؤثـر علـى الأذن وكذلك يذهب فى تفسيره للشم وعلى العموم يفسر الأحساس دائما بأنه يحدث نتيجـة صدور جزئيات مادية صغيرة من الأشياء المحسوسة تصل الينا بطريقة فيها تـآلف وإنسجام معين وينتج عنها فى النهاية إنفعال أو إحساس ملائم أو غير ملائم .

أما عن معيار الحقيقة فهو دائما الإحساس وكل إحساس صـــادق بـالضرورة ولايمكن الشك فيه ، إذ لوحدث من إحســاس آخر مماثل تساوى معه فى الصـــدق أما لو تعارض مع احساس مخالف فالسبب هو وجود مؤثر آخر مخالف فلا يمكـن إذن لإحساس أن يكذب إحساساً آخر ،والصواب والخطأ لايرجعان الى الاحساس بل إلى الحكم العقلى الذى يقع على الإحساسات ويضاف اليها . فقد نرى برجا معينـــا اسطوانيا من بعيد وتراه مضلعا من قريب وليس من الخطأ أن نقول أننـــا نـــراه اسطوانيا بل يقع الخطأ إذا استمررنا فى الاعتقاد بأنه إسطوانى عندما نقترب منه ، بل يذهب أبيقور الى القول بأن رؤى المرضى والاحلام صادقة لأنها تؤثـــر فينـــا ومادامت تؤثر فلا بد أنها صادقة ولابد من افتراض وجود مؤثر بسببها .

وتكرار الاحساسات فى الذاكرة يكون ما سماه ابيقور بالأفكـــار Porolepsis prenotions وسماها لوكريتيوس Notities فالأفكار العامة أو المتصورات العقلية التى نستخدمها فى تفكيرنا هى تصورات تعتمد على جملة إحساسات سابقة كقولنـــا إنسان بعد أن تكون قد سبقت لنا رؤية عدد من أفراد الإنسان . وحاول ابيقـــور أن يتحقق من صدق الاستدلال العقلى بالرجوع الى طرق التشبيه والمقارنة ولكنه لـــم يصل فى هذه المحاولة الى وضع نظرية فى الاستقراء . يقول فى توضيح نظريتـــه فى التعرفة :

" لابد أن نثق فى احساساتنا وتمثلاتنا التى تحضر لاذهاننا .. اننا نـــدرك علـــى الظواهر السماوية بالإعتماد على ملاحظتنا للظواهر القريبـــة منـــا علـــى الأرض ومايقع تحت حواسنا ، وإننا كثيراً مانعتبر الكواكب كائنات سعيدة و خالدة ننسب لها الإرادة ونعتقد فى أساطير تصور لنا هول العقاب الأبدى الذى ينتظرنا بعد المـــوت لكن سعادتنا تتطلب منا التخلص من هذه المخاوف ودوام تذكرنـــا لـــهذه الحقـــائق الأولية وهذه المعلومات العامة ".

ونسب ديوجين لايرتوس لأبيقور نظرية فى تفسير أصل اللغة عارض من قالوا بأن اللغة قد وضعت مرة واحدة بالإتفاق أو المواضعات وهو الرأى الذى ســبق أن

ذهب اليه ديمريطس ويرى أبيقور على العكس من ذلك أن الطبيعـــة هـــى التـــى أوجدت اللغة فى الإنسان كما أوجدت فى الحيوان القدرة على التعبير عن مشاعره،

يقول " إن الطبيعة قد اضطرتنا الى التعلم والتكيف " والعقل يكســـب معلوماتنـــا نظاماً ويدفعنا الى تطوير اختراعاتنا : واللغة لم توضـــع مـــرة واحـــدة بالاتفـــاق (Parconvention) بل أن الطبيعة قد جعلت لكل قوم تجاربهم الخاصة والمؤثرات الخارجية التى دفعتهم الى إخراج أصوات من حنـــاجرهم بشـــكل معيـــن يرتبـــط بالإنفعالات والظروف المختلفة فتكونت نتيجة لذلك لغة خاصة بكل قوم .

أما عن النفس الإنسانية فيقول إنها مركبة من جزئيات مادية صغـــيرة للغايـــة منتشرة فى الجسم كله وهى أشبه بنفس حار وهى علة الإحساس ولكنها لاتنفصـــل عن الجسم والجزء العاقل منها يكون فى الصدر ، أما القول بأن النفس لامادية فـــهو عنده غير مقبول لأنها لوكانت كذلك لما كان فى مقدورها أن تؤثر أو تتأثر بالأشياء المادية .

الطبيعـــة :

يقول أبيقور فى رسالته إلى هيرودوت التى أوردها ديوجين لابرتوس مالم يكن بنا حاجة الى التخلص من خوف الموت والالهة لما بحثنا فى الطبيعة . وقد رجـــع ذلك الى الاساس الذى اعتمدت عليه الطبيعة الأيونية من أنه لايوجد شئ من العـــدم ولاينتهى شئ الى العدم أى أن الكون آلى أبدى ولكن أبيقور لايقول بعالم واحد كما يقول أفلاطون وأرسطو بل يرى أن هناك عدداً لانهائياً من الأكوان تتكون وتفنـــى من عدد لانهائى من الذرات المتحركة فى فراغ لانهائى .

أما لو كان الخلاء لانهائياً وعدد الأجسام الموجود فيه محدود فأنه ينتج عن ذلك أن تتدثر هذه الأجسام وتتشتت فى اللانهائى ولايعود لها نظام أو وجـــود مـــرة أخرى بعد ذلك ، أما لو كان الخلاء محدوداً وعدد الأجسام لانهائياً فلن يوجد مكـــان يتسع لها .

إنما عن هذه الذرات اللامنقسمات التى تتكون منها الأشياء واليها تنحل المركبات فهى ذات أشكال مختلفة لايمكن حصرها . ولها حركة أبدية آلية ذات سرعة واحدة ، ذلك لأن الخلاء يهب الخفيفة منها والثقيلة بسرعة واحدة .

أما عن سبب حركة الذرات فلا يرجع الى علة مفارقة أو محرك خارجى لأنه يستبعد من مذهبه فكرة نفس كلية أو إله هو علة لحركة العالم أو نظامه أو وجوده ، لذلك فهو يرجع سبب الحركة الى طبيعة الذرات نفسها وإلى حركتها الالية ويرى أن الذرات كلها مهما أختلفت فى أشكالها أو أحجامها أوألوانها لها اتجاها واحدا من أعلى الى أسفل وسرعة واحدة متساوية ولكن كيف تتجمع الذرات لتكون المركبات مع تساقطها العمودى بسرعة واحدة يقول : يحدث التقاء الذرات ببعضها بسبب مايسميه أبيقور بإنحراف الذرات Clinamen Pareklisis ويفسر هذا الانحراف على أنه نوع من عدم التحديد الذى يؤدى الى إمكانية تفسير الحرية فى العالم الانسانى .

أما عن صفات الذرات فلا يمكن تحديدها إلا من حيث الشكل والحجم واللون والأشكال عددها محدود أما فيما يتعلق بالحجم فهى ليست من الكبر بحيث يمكن أن تقع تحت حواسنا ولها ألوان خاصة لاترجع الى حركة السقوط السابق ذكرها ، ولما كانت الذرات لانهائية العدد ومتحركة حركة أبدية فى خلاء لانهائى فلا يمكن بالتالى حصرها فى عالم واحد وإنما تتكون منها عوالم لانهائية العدد قد تشبه عالمنا أو قد تختلف عنه . ويظهر تمسك أبيقور بالتفسير العقلى وبالملاحظة العلمية فى رسالته الى ببتوكليس التى تناول فيها تفسير الظواهر الجوية يقول فى هذه الرسالة: لنحاول أن نصل الى التفسيرات الصحيحة لتلك الظواهر السماوية بتجنب الوقوع تحت تأثير الاساطير ولايجب أن ندخل الالهة فى هذه الموضوعات ولنفسر حركة الاجرام السماوية على نحو مانفسر سائر الأشياء الأخرى التى هى على الأرض ويقدم شارحه الأكبر لوكريتبوس تفسيرا لنشأة الحياة على الأرض وتطور الأحياء يلتزم فيه بنفس هذا المنهج العقلى والاتجاه الآلى الذى يستبعد الغائية والعناية الالهية

من الطبيعة تماما وخلاصة مايذكره لوكويتيوس أن كل الكائنات الحية انما نشأت من الأرض وتطورت بحيث بقى منها الأصلح وإندثر غير الصالح . يقول لوكريتيوس ، قبل أن يظهر الإنسان على الأرض كانت الأرض خصبة وفيرة الإنتاج فأنبتت النبات أولا فالطير فأنواع الحيوان فالإنسان ووجدت كائنات كثيرة ذات أشكال غير منتظمة وإنقرضت أنواع كثيرة ولم يبق لها ذرية أما عن التى بقيت فقد بقيت بفضل مالها من حيلة أو من قوة أو من سرعة مثل الأسود التى بقيت بفضل قوتها وشجاعتها أو الغزال فقد بقى لسرعته أو الثعالب لذكائها ، أما الكلاب والأغنام فقد بقيت لأن الإنسان قد تولى أمر رعايتها لما لها من خدمات .

الأخـــلاق :

من الواضح أن هناك دعامتين رئيسيتين تستند عليها الأخلاق الابيقورية وهما النزعة الحسية فى المعرفة والتى تنتهى الى نظرية فى اللذة والنزعة المادية فى الطبيعة التى تنتهى الى الخلو من الهموم والوصول الى حالة " الاتراكيسيا Atatsxie " التى يبلغها الفيلسوف عندما تتوفر له الرؤية العقلية الصحيحة عن الأشياء .

لذلك فإن التوفيق بين هذين الدافعين فى فلسفة أبيقور يكون لب المشكلة الأخلاقية عنده على حد قوله أميل بريية . ولعل السبب فى خلق هذه المشكلة هو تفسيرات أعداء الابيقورية الذين فسروا اللذة تفسيرا حسبما يقربها من اللذة عند القورينائيين وأوجدوا علاقة بين هذا التفسير وبين انكار أبيقور لعناية الالهة وعلى رأس من تبنى هذا الهجوم بلوتارخ شيشرون ، ورغم هذه التفسيرات فلم يعدم أبيقور معجبين به أشادوا بسمو مبادئه الأخلاقية وعنهم ديوحين لايرتوس ومنهم سمكا الفيلسوف الرواقى وفيرفوريوس تلميذ أفلاطون .

أما عن اللذة التى طلبها أبيقور لتكون أساس سعادة الإنسان فلم تكن فى الواقع سببا لقيام تعارض مع نظريته فى الاتراكسيا . ذلك لأنه لم يتركها بغير قيود أو

تنظيم بل عنى بتفسيرها تفسيرا عقليا . ففى رأيه من الطبيعى للكائن الحى أن يسعى الى طلب مايسبب له اللذة وأن يهرب من كل مايسبب له ألما وذلك بطريقة تلقائية لاتحتاج لبرهان لكن السعادة لاتتم للإنسان إلا بالحكمة والتعقل والتمسك بالفضيلة خاصة فضيلة الأمانة والعدالة . لذلك فاللذة تقاس دائما بما يترتب عليها من نتائج ومن هنا فقد قسم ابيقور اللذات الى ماهو طبيعى وضرورى لحياة الإنسان وهذا النوع قد ينجم عن عدم إشباعه ألم ومن قبيل هذا النوع الأكل والنوم ثم يلى هذا النوع نوع آخر طبيعى ولكنه ليس ضروريا مثل اللذات الحسية ، ثم يليه لذات ليست طبيعية ولاضرورية فهى لذات كمالية وهذه ينبغى الزهد فيها ومن قبيل هذا النوع الرغبة فى أكل معين أو ملبس معين .

وكذلك لم يتورط أبيقور فى مادة حسية كالتى قال بها ارستبوس وأتباعه الفيربنائيون يقول ديوجين اليرتوس بهذا الصدد أن القوربنائيين قد ذهبوا الى القول بأن الام الجسد أشنع من ألام النفس . أما أبيقور فقد ذهب الى عكس مابقوئين لأنه قال بأن الآم النفس أشنع ذلك لأنها تتعلق بالحاضر والماضى والمستقبل على السواء . ومعنى هذا أن اللذة عند أبيقور كانت أقرب الى الخلو من الالم الجسمانى aponia وأنها لاتتعارض مع حالة الخلو من الهموم التى أطلق عليها اسم الاتراكسيا ataraxia .

أما بلوغ الاتراكسيا فهى بالقضاء على تلك المخاوف التى تغمر النفس الانسانية بالقلق الدائم وعلى رأس هذه المخاوف خوف الموت يقول فى رسالته الى مينيكايوس : لتعود نفسك على القول بأن الموت ليس شيئا يتعلق بنا ذلك لأن الخير والشر لايوجدان فى إحساسنا والموت هو فقدان هذا الاحساس فهو لاشئ بالنسبة لنا فمادمنا لانحس معه بشئ ومعرفة هذه الحقيقة تتيح لنا أن ننعم بهذه الحياة الفانية .

كذلك أخذ على عاتقه مهمة تحرير عقول الناس من المعتقدات الخاطئة عن الالهة ومايسببه الخوف عن عقابها من الآم للبشر يقول : من الواضح أن الالهة موجودة وأنها خالدة وسعيدة ولكنها ليست بالصورة التى يتخيلها عنها العامة .

ويشرح لوكريتيوس رأى أبيقور بهذا الموضوع فيقول : من غير المعقول مايقال ياميبوس من أن الالهة قد رتبت الطبيعة بحيث تفيد الإنسان وأن لها بموجب هذا حق الطاعة والخضوع عليه ذلك لأنه رأى فائدة تعود عليها من هذا الاعتراف بالجميل من جانب البشر .

وعلى هذا النحو مضى أبيقور فى تأكيد رأيه من أنه لايوجد هناك قدرة ولاقوة تضمر للإنسان شرا ولاخيرا . فالعالم نفسه قد وجد من تلاقى ذرات لانهائية العدد تجوب خلاء لانهائيا منذ الأزل . وأعتقد فى حرية إرادة الإنسان واستطاع أن يجد لها أساسا فى نظريته الطبيعية حين ذهب الى أن حركة الذرات فى الخلاء تتعرض لظروف مصادفة فيحدث فيها إنحراف مفاجئ غير متوقع فأفسح بهذا التفسير مجال القول بكسر حتمية قوانين الطبيعة وطبق ذلك على إرادة الإنسان التى جعل لها حرية مطلقة وحررها من اى قدرية أو جبرية مصدرها قوة أخرى تسمو على قدرة الإنسان .

وقد كان رأيه فى هذا عن الالهة نتيجة ضرورية لفلسفته الطبيعية المعارضة لعلم الطبيعة عند أفلاطون وماجاء به التالية الافلاطونى من نظرية تقول بوجود نفس كلية لها فضل تنظيم الكون وتوجيهه بإرادة تعلو على إرادة الإنسان ، لذلك رجع أبيقور للطبيعة الأيونية السابقة على سقراط وخاصة لعلم الطبيعة الذرية عند ديمقريطس لالغائها القول بأى قوى محركة خارجية توجه الكون أو توجه إرادة الناس إذ وجد فى هذا التفسير الطبيعى أساسا لتمسكه بحرية الإنسان المطلقة من أى مصير أو قدر مسبق لا إختيار له فيه .

لكن إذا كان أبيقور قد سلب الالهة كل مايمكن أن ينسب لها من عناية أو قدرة أو توجيه للعالم والحياة الانسانية فلما أبقى على وجودها ؟ لعل المبرر الوحيد الذى يمكن أن يكون قد دفعه الى تأكيد وجودها هو أن البشر جميعا قد اتفقوا على وجود الالهة ولديهم بها فكرة ومايحدث لنا من أفكار لابد ناتج من حقيقة موجودة ولموكريتيوس نفسه يصورها على أنها أجسام ضخمة وعلى هيئة البشر ولكنها

ليست من باب المرئيات بل من المدركات العقلية فهى تعرف بـــالذهن ويفسـرها شيشرون فى معرض حديثه هو مايصور به الالهة عند الأبيقوريين بأنها لم تكـــن بذات صلابة لأنها ليست من باب المركبات الذرية لأن هذه المركبـــات تتعـرض للانحلال ، ولكنه تصورها ذات هيئة ثابتة تستمد مادتها من معطين لاينفد غـير أن وجود الالهة على هذا النحو المسلوب القدرة يدعو أيضا للتساؤل ولعل أبيقـور أراد أن يقدم بفكرته هذه عن الالهة صورة ونموذجا للكائنـــات ذات الســعادة الكاملـة والخلود التام التى لايشغلها شاغل أو يعكر صفواه صفوهاهم من الهموم وذلك لكـى تكون مثلا أعلى يحتذيه ويتأمله الفيلسوف الساعى الى بلوغه ســعادة الخلـو مـن الهموم سعادة الاتراكسيا كما قد سماها ٠

وليس تصور أبيقور هذا للآلهة بغريب عن الشعور السائد فى عصره بل هـــو يعكس تماما ما ساد المجتمع اليونانى بعد موت الاسكندر من تغير كبير فى القيـــم المتوارثة فإنهيار نظام المدن اليونانية القديمة أمام جيوش الاسكندر وخلفائـــه فـى العصر الهلنستى قد أدى بدوره الى إنهيار كل القيم المرتبطة بـــها حتـى آلهتـها وحماتها بدت باهتة اللون مسلوبة القوة بجانب أبطال التاريخ الذين حطموا المـــدن وهزموا آلهتها ولم يكن أبيقور وحده المعبر عن هذا الشعور اللامبالى نحو آلهته بل لعل يناندر الكاتب المسرحى الكبير ومعاصر أبيقور قد عبر عن نفس هذه الفكـــرة فى مسرحيته المعروفة بإسم التحكيم ٠

إذ يقول فيها على لسان عبد يدعى أونيسيموس فكروا كم يوجد فى هذا العـــالم من مدن وكم يوجد فى كل مدينة من قوم . أتظنون الالهة تعنى بهموم كل هـــؤلاء إنها لتبدوا حياة غير لائقة بالالهة ولعل هذا هو السبب الذى دفع أيضا بديمســتينيس الخطيب أن يسخر من الاسكندر الأكبر فى إدعائه بأنه ابن الاله آمون فيعلق قـــائلا ليتلقب بأبن يوس أو بوزايدون أن أعجبه ذلك ٠

ثانيا : الرواقيـــون The Atoion

حياة زينـــو

ولد زينو القبرصى مؤسس المدرسة الرواقية نحو سنة ٣٤٢ ق٠م فى مدينـــة سيتيوم Citiom من أعمال قبرص ، وقد كانت مدينة يونانية تغلب علـــى أهلـها النزعة الدينية التى يتميز بها الجنس السامى ، وقد كان ينتمى الى هذا الجنس عـدد كبير من سكان تلك الجزيرة ، وكان أبوه بل أسرته جميعا تشتغل بالتجارة ، فبـــدأ زينو فى طليعة شبابه يمارس المهنة ، ثم نزلت به كارثة ماليـــة فادحـــة أصابتـــه بجنوح مركب فيها ماله فإصطدمت بصخرة حطمتها وبذلك فقد زينو كل ثروتـــه ، فذهب الى أثينا حيث تتلمذ لكراتس Crates الكلبى ، وستابو Stilpo الميســارى ، ومولیمو Molemo الأكاديمى فإجتمعت لديه فروع شتى من المذاهب الفلسفية ، إذ درس فلسفة الكيبين وطرائق حياتهم العلمية ، كما درس الفلسفة الميغاريـــة ، هـــذا فعلا عما تأثر به من تعاليم سقراط التى درسها مما كتبها اكرتوفون وافلاطـــون ، فتناول تلك الآراء جميعا ، وطبعها بطابع ذهنه ، وأخرجها الناس فلسفة جديـــدة ، فأنشأ حوالى سنة ٣٠٠ق٠م مدرسة فى رواق مزخـــرف نصـــب اليـــه المذهـــب واصحابه ، ولكن كان التاريخ لايعنى من أخريات أيامه إلا قليلا فإنه لايســـعه أن يخفى تلك الشخصية الممتازة البارزة التى صادفت من قلوب معاصريها كل إجـلال وإكبار ، لما تحلت به خلق نبيل ، ولما انصفت بداية حياته من بســـاطة وإعتـــدال استطاع بفضلهما أن يعمر أعواما ، دون أن تصيبه علة أو مرض ، ثـــم شـــاء أن يختم حياته بيده ، فإنتزع حياته بيده ، فإنتزع نفسه من صدره أختيارا فى سنة ٢٦٤ ق٠م أو (٢٦٠) .

أعلام المذهب الرواقـــى

وجدير بنا أن نلم المامة خفيفة بأعلام الرواقيين الذين خلفوا زينو ، فقد تزعـــم المدرسة الرواقية من بعده، كلنثيس Cleanthes وأخذ يديرهـــا بين سنتـــى ٢٦٤،

٢٣٢ وقد كتب فيما كتب نشيدا دينيا رائعا كان من أثـــره أن أكتســب المذهــب الرواقى تلك النزعةالدينية القوية التى عرفت عنه . ثم خلفه كريسبسChrysippus وقد تولى رئاسة المدرسة بين سنتى ٢٣٢ و ٢٠٤ ق٠م وهو الذى أكمل جوانـــب النقص فى مذهب الرواقيين . حتى إنتهى بعمله الى ماهو عليه من تمام ، فضـــلا عما بذل من جهده فى رده على ماوجهه اليه الشكاك ورجال الاكاديمية من ســـهام النقد ، وهكذا لبث المذهب الرواقى فى أثينا ينتقل من زعيم الى زعيم حتى كـــانت سنة ١٥٠ ق٠م أو مايقرب منها ، فإنتقل الى روما ، حيث خيم برواقه الـــى ســـنة ٢٠٠ بعد الميلاد ، وأبرز أعلام هذا المذهب من الرومانيين هم هنيكا وابكتيتـــس ، والامبراطور ماركس اورليوس ، وشيشرون ، فقد نفخوا فيه من روحهم بما انتجت أقلامهم ٠

أساس المذهب الرواقى

لم يحفظ لنا التاريخ مما كتب الفلاسفة الرواقيون فى الثلاثة قرون الأولى مـــن حياة مدرستهم إلا أجزاء قليلة متناثرة ، وذلك على كثرة ماسطرت أقلامهم كـــثرة خصبة وافرة ، حتى قيل عن أحدهم – كريستبس – أنه ألف وحده نحـــو ســـبعمائة كتاب.ولذا كان من المتعذر أن ترد أجزاء المذهب الى أربابها من أعلام الرواقيين– فليس لدينا ما نستطيع أن نعتمد عليه فى التمييز بين آراء زينو وما أضافه أتباعه ، وبخاصة كريسبس ، فكان لزاماً علينا أن ننظر الى المذهب كلـــه كوحـــدة دون أن نعمد الى تتبع مراحل نموه وتطوره ، فلنأخذه كما خلفه كريسبس ٠

جاءت الفلسفة الرواقة مناقضة لفلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فقـــد أقـــام هؤلاء فلسفتهم على أساس البحث النظرى قبل كل شئ ، أما الرواقيين فلم يأبـــهوا بالآراء النظرية ولم يعيروها من عنايتهم ودرسهم إلا بمقدار ماتكون ســـبيلا الـــى الجانب العملى من الحياة ، فليست الفلسفة عندهم أن ينقـــص الإنســـان بنظـــره الأرض والسماء ثم يقف عند هذا الحد لايعدوه ، إنما هى – كما عرفوهـــا – فـــن الفضيلة ومحاولة إصطناعها فى الحياة العملية ٠

أراد زينو إذن أن يحيا حياة فاضلة تقوم على أساس من الخلق القويم ، ولكـــن من له بهذا الأساس ، وأين يجده ؟ إنه يريد عمادا ثابتا وطيدا لا تتزعزع قوائمه مع إختلاف الزمان والمكان فإلتمس بادئ ذى بدء كراتس الكلبى عســـى أن يصـــادف عنده أساسه المنشود ، ورافقه زمنا طويلا ، حتى أخطأ فريق مـــن أتبـــاع زينـــو فأعتبروا أنفسهم ورثة للفلسفة الكلبية التى تفرعت عن فلسفة سقراط وكانوا يتخذون سقراط وديوجنيس وانتستثيس أمثلة عليا لما يجب أن يكون عليه الحكيم ، وإذن فقد كان غرضهم الاسمى هو فرض المدرسة الكلبية بذاته : سعادة الإنسان واســـتقلاله بفضيلته وكان تعريف الفلسفة عندهم هو تعريفها عند المذهـــب الكلبـــى ، عمـــل الفضيلة وقاسوا قيم الأبحاث النظرية بمقدار اشتراكها فى بناء الحياة الاخلاقية ولكن فات هذا الفريق أن مذهب زعيمهم زينو لم يكن هو بذاته مذهب المدرسة الكلبيـــة ولا هو تهذيبه فحسب بل إنه شئ آخر جديد خلقه زينو خلقا وأنشأه إنشـــاء ، وان يكن قد استقى عناصره من سابقيه ٠

لم يكن الرواقين جميعا على إتفاق تام فى فلسفتهم ، فبينمـــا نجـــد هـــيريلوس Herrilus يصرح بأن الحرفة وحدها هى الخير الأسمى وأنها غاية الحياة المثلى ، ترى فى الطرف الآخر " أرستون " يحتقر الثقافة والتعليم ، ويسخر من كل ضروب المعرفة ، فإن كانت تلك المعرفة متعلقة بما وراء الطبيعة فـــهى محاولـــة فاشـــلة فهيهات لهذا العقل البشرى العاجز أن يصل الى شئ مما وراء الطبيعة ، وأمـــا أن كانت المعرفة بحثا فى الطبيعة المادية نفسها فهى عبث لاغناء فيه – وكأنمـــا أراد أرستون بذلك أن يحصر الرواقية فى حدود الفلسفة الكلبية فلا تعدوها ، بأن ركـــز القيمة كلها فى الأخلاق وحدها ، وبين هريلوس من ناحية وأرستون مـــن ناحيـــة أخرى كان زينو يرى أن المعرفة العملية شرط أساسى للحياة الاخلاقية ولذا قســـم فلسفته الى أبحاث ثلاثة : المنطق ، الطبيعة ، الأخلاق ، علـــى أن يكـــون الأولان وسيلتين تؤديان الى الثالث هو الغاية المنشودة ٠

أما المنطق فقد تأثر فيه خطو أرسطو ، وأن يكون قد أضاف اليه وأما الطبيعة فقد بناها على مزيج من نظرية هرقليطس وآراء أرسطو ، وأما الاخلاق فقد خفف من غلواء المدرسة الكلبية فأدخل على صلابتهم شيئاً من اللين : من تلك العناصر المتفرقة أقيمت الفلسفة الرواقية ، فلا يجوز لأحد أن يزعم إنها استمرار للفلسفة الكلبية وحدها بحال من الأحوال .

المنطـــق

خير لنا أن نمر فى بحثنا على الجزء من منطق الرواقيين الذى يتصل من القواعد لأنه فى جوهرة منطق أرسطو ، وأن ننصرف بغنايتنا الى نظريتهم التى أضافوها – وهى من ابتكاراتهم – عن أصل المعرفة ومقياس الحقيقة .

أنكر الرواقيون ماذهب اليه أفلاطون من أن فى النفس مثلاً جاتها بالفطرة منذ الولادة ، وتكتسب من العالم الخارجى ، وزعموا أن نفس الطفل عند ولادته تكون صفحة بيضاء خالية من كل أثر وصورة ، ثم تلبث أن تتوارد على حواسه آثار منبعثة من الأشياء الخارجية فتطبع صورها فى لوحة الذهن كما تطبع صورة الختم على قطعة الشمع ، واذن فالعقل قابل للآثار الحسية منفعل بها ، وقد يكون له أثر فعال ولكن على ألا تتجاوز تلك الفاعلية ماتقدمه له أعضاء الحس من مادة ، فهو لا يخلق من عنده شيئاً ، وإنما ينحصر تصرفه فى هذه الدائرة الضيقة وحدها ، يشكل فيها ويصور من أجزائها كيف شاء ، وغذن فمعين المعرفة كلها هو العالم الخارجى ، يرسل إلينا أسباب العلم فتسلك الى أذهاننا سبلاً خمسة ، هو الحواس ، وليس سوى ذلك علم ولامعرفة خلافاً لما أرتأه أفلاطون (من أن العقل وحده مصدر المعرفة تتبع منه لأنها مطبوعة فيه وأما الحواس فهى لاتؤدى إلا الى الوهم والزلل) . نعم أنكر الرواقيون ما أثبته أفلاطون من أن هذه المدركات الكلية – أو بعبارة أخرى أسماء الأجناس كانسان وحصان وشجرة – صور لحقائق ميتافيزيقية موجودة فعلاً خارج حدود أذهاننا ، فتلك الادراكات الكلية أن هى إلا أفكار فى

الأشياء فى جنس واحد وأطلقنا عليها أسما مشتركا فليس لهذا الاسم المشترك مدلول خارج نفوسنا .

ومادامت المعرفة كلها إنما صدرت عن الاشياء المحسة فالحقيقة هى المطابقة بين ماينطبع فى أذهاننا من آثار وبين الأشياء الخارجية نفسها ، أو بعبارة أخرى هى تطابق بين صورة الشئ فى أذهاننا وبين الشئ نفسه ، ولكن كيف السبيل الى معرفتنا أن هذه الافكار التى تحملها رؤسنا نسخ صحيحة لأشياء فى الخارج مايدريك أن الصورة الشجرة التى فى ذهنك تتطبق على مسماها ولم لاتكون هذه الافكار من لعب الخيال وصنع الوهم ؟ آثمة مقياس نقيس به الحقيقة فنميز بين الفكرة الصحيحة والزائفة ؟ يجيب الرواقيون أن أنعم ، ولكنه ليس فى هذه الادراكات الكلية لأنها صنيعة أذهاننا ، فهى التى كونتها وركبتها مما أتت اليها الحواس ، قد رأيت زيداً وعمرا وأحمدا وخالدا فكونت لنفسك من هؤلاء صورة سميتها " إنسانا " فلا يجوز لك بحال من الأحوال أن تتخذ هذا الذى كونته لنفسك بنفسك مقياس تميز به الباطل من الصحيح وإذن فلا يحق إلا هذه الآثار الحسية نفسها وعلى ذلك فقياس الحقيقة لابد أن يكون فى دائرة الاحساس ولايتعداها ، مقياس الحقيقة هو الشعور لا الفكر .

ويرى الرواقيون أن الأشياء الحقيقة تبعث شعورا قويا واضحا أو اعتقادا بأنها حقيقة ، وهذه القوة وهذا الوضوح فى الصورة التى تنبعث فى الذهن من شئ حقيقى كفيلان بتمييز الصورة الذهنية الصحيحة التى تمثل حقائق خارجية من الصور التى نسجتها الأحلام وركبها الخيال . فالشئ الحقيقى إنما يفرض نفسه على نفوسنا فرضا ، وليس لانكاره من سبيل . إذ يقوم فى النفس اعتقاد حازم بأن هذا الشئ المعين موجود فعلا فى الخارج ، فهو حقيقة مؤكدة وهذا الاعتقاد هو حده مقياس الحقيقة .

وإذن فقد عادت الفلسفة ادراجها مرة أخرى ، وإتسمت بالطابع الشخصى ، وأصبح مقياس الحقيقة ليس قائما على العقل وهو عنصر عام ، بل على الشعور وهو عقيدة شخصية محصورة فى الفرد .